الإرهاب البدائي

التحولات غير التقليدية لأعمال العنف في المنطقة العربية

ما الذي يحدث عندما يتم إخراج أحد تنظيمات "الإسلام السياسي" كبيرة العدد، على غرار الإخوان المسلمين، من السلطة بالقوة، فيما يتعلق بالسلوك العنيف لعناصره "غير المدربة"؟

كان هذا هو السؤال الرئيسي الذي دارت حوله حلقة النقاش التي نظمها "مركز المستقبل"، بمقره في أبوظبي، يوم الاثنين الموافق 16 يونيو 2014، بمشاركة كل من:

- د. محمد عبدالسلام، المدير الأكاديمي لمركز المستقبل.

- أ. شادي عبدالوهاب، منسق برنامج التوجهات الأمنية بمركز المستقبل.

- أ. على بكر، الباحث المتخصص في شؤون الحركات الإسلامية بمجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام بالقاهرة.

- أ. حسام إبراهيم، مدير برنامج الدراسات الأمريكية بالمركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة.

وقد شارك في الحلقة أيضاً كل منسقي البرامج العلمية ومسؤولي الأنشطة الرئيسية في مركز المستقبل.

وكانت الإجابة التي قدمها المشاركون في الحلقة عن السؤال الرئيسي، هي "أن ما سيحدث في تلك الحالة، وضمن تلك المحددات، أي خروج الإخوان من الحكم، خلال المدى التالي مباشرة، ولفترة يوجد خلاف حول تقديرها، هو إرهاب بدائي".

لقد أكدت ورقة العمل الرئيسية للحلقة النقاشية أنه كان المعتاد أن من يقوم بأعمال الإرهاب المؤثرة "جماعات" عنيفة، لديها أسماء محددة، وأيديولوجية متطرفة، وقيادة مركزية، وتنظيم حديدي، سواءً كان ذلك يتعلق بأعمال الإرهاب داخل الدول، كجماعات الجهاد، والجماعات الإسلامية في مصر، أو عبر الحدود الدولية، كتنظيم وفروع القاعدة في أنحاء الإقليم، قبل أن تشهد الظاهرة الإرهابية – مع بقاء أشكالها التقليدية – تطورات أو تحولات غير نمطية، في اتجاهات مختلفة، منها:

1- ظهور الفروع الإقليمية للتنظيمات الرئيسية، كما في حالة تنظيم القاعدة والتنظيمات التي تحمل ذات الاسم في الأقاليم المختلفة، كتنظيم القاعدة في جزيرة العرب، والقاعدة في المغرب الإسلامي، مع ملاحظة أن هذه التنظيمات الفرعية تتمتع بحرية حركة واسعة تختلف أحياناً مع توجهات التنظيم الأم، ساعدها على ذلك وجود موارد مالية مستقلة، مع اعتمادها على عناصر محلية أيضاً.

2- تشكل ميليشيات إرهابية مسلحة شديدة التطرف، فلم تعد المسألة تتعلق بجماعات إرهابية محددة العدد، ذات طابع سري، وإنما ميليشيات كبيرة العدد، متعددة الجنسيات، لديها قاعدة جغرافية أحياناً، وتسليح رئيسي، وارتباطات خارجية، مع فكر شديد التطرف، حتى بالقياس على تنظيم مثل القاعدة، أو جماعات العنف السياسي، مثل النصرة وتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش" تحديداً، التي بدأت تسيطر على مناطق كاملة.

3- اتساع نطاق تهديدات "العائدين من مناطق القتال"، إلى بلدانهم الأصلية، ليلتحقوا أحياناً بالجماعات المحلية الـ (Home Grown)، والتي بدأت بأفغانستان، ثم مناطق يوغوسلافيا السابقة، والعراق، ثم سوريا، والتي هددت كل الدول تقريباً، وبينها دول أوروبا الغربية، سواء بعودة جماعات أو أفراد للقيام بعمليات محددة، في ظل مسارات حركة معقدة.

وأضافت ورقة العمل، أنه "في كل منطقة كانت هناك ملامح مختلفة تتعلق بالتحالفات التي تعقدها تلك الجماعات مع بعضها البعض، أو مع دول وجماعات مصالح، أو اعتمادها أحياناً على الإجرام المنظم للحصول على التمويل، وتحركها في شكل موجات من مكان لآخر، وفقاً لمدى قوة أو ضعف الدول في الإقليم".

في هذا الإطار، أكد المشاركون في حلقة النقاش على أهمية مفهوم الإرهاب البدائي كأداة فهم وتحليل، وباعتبارها ظاهرة بذاتها، إذ أشار د. محمد عبدالسلام إلى أنه كان مفهوماً من قبل أن هناك تصاعداً لشكل غير تقليدي من العنف المسلح يرتبط بمفهوم الإرهاب العشوائي، الذي تصاعد على نطاق واسع، مرتبطاً بعدد لا حصر له من أعمال العنف التي لا يلعب فيها التنظيم دوراً حاكماً، متسماً بما يلي:

- إنها ترتبط بفرد أو خلية صغيرة، فهي عناصر بدون تنظيم، تسمى أحياناً الذئاب المنفردة (Lonely Wolves) والأرامل السوداء (Black Widows)، وتتضمن حالات مثيرة للاهتمام.

- عدم وجود تنظيم أو شبكة كبيرة، تقوم بمهام التجنيد أو التمويل أو التدريب أو التسليح للعناصر الإرهابية، وهنا شاعت تعبيرات "إرهاب بلا تنظيم"، ولعبت شبكة الإنترنت دوراً جوهرياً، حيث أصبحت هي "الجماعة".

- إن أساليب وطرق تنفيذ العملية الإرهابية تعتمد على الفرد أو الخلية المنفذة للعملية بدون أي قيادة أو توجيه خارجي مباشر على نحو ما تشير إليه مسميات مثل (leaderless Terrorism).

لكن ثار جدال بين المشاركين حول مدى خطورة هذا الشكل من الإرهاب، بين من يعتبرونه شديد الخطورة، بل أخطر من الإرهاب المنظم، لأنه على الأقل يمكن أن يضرب في أي مكان دون وجود قدرة على توقعه، وبين من يُقدرون أنه لا يمكنه إحداث تأثيرات مهمة أو تغييرات كبيرة، على الرغم من إمكانية انتشاره، إلى أن انهارت بعض أكبر تنظيمات الإسلام السياسي، وأهمها على الإطلاق جماعة الإخوان المسلمين في مصر، التي تولت السلطة، في بعض الدول، في أعقاب الثورات العربية.

عند هذه النقطة، بدأ طرح مباشر للإشكالية التي حاولت "حلقة النقاش" أن تركز عليها، لاستكشاف أبعادها، ومدى خطورتها على أمن واستقرار الدول في المنطقة العربية، فقد كان مفهوماً، أو محل نقاش، أن معظم هذه الجماعات، تتكون من تنظيم (سياسي دعوي) كبير العدد، يمارس العملية السياسية، مع وجود سؤالين:

- هل توجد أجنحة مسلحة، داخلية، لتلك التنظيمات؟

- هل توجد تحالفات لها مع "جماعات إرهابية"؟

وعقب أ. علي بكر بالقول: "إن معظم الإجابات على مثل هذه الأسئلة، هي (نعم) أكثر من (ربما)، في ظل وجود "قيادات متطرفة" لديها ميول تكفيرية، على رأس بعض تلك التنظيمات، مع خلاف شديد، حول المدى والنطاق، ومحددات كل حالة على حدة، لكن بعد انهيار أكبر تلك التنظيمات في مصر، سارت الأمور في اتجاهين:

1- تفجر أعمال إرهاب منظمة من جانب جماعات مسلحة، كانت متحالفة مع الإخوان المسلمين، أو نشأت في إطارها، بدعم من "الحلفاء الإرهابيين"، متخذة شكل العبوات الناسفة والسيارات المفخخة والعمليات الانتحارية والهجمات العنيفة، مثلما حدث من جانب جماعة "أنصار بيت المقدس"، وما سُمي "ميليشيات الشاطر".

2- تفجر أعمال عنف بدائية، من جانب عناصر التنظيم كبير العدد، إثر خروجه من السلطة، فقد أعقبت "فض اعتصام رابعة" مباشرة، هجمات كثيفة متتالية، على منشآت الشرطة والمواقع الحيوية، ثم بدأ يستقر الشكل الذي تهدف "حلقة النقاش" إلى تحديد ملامحه، وهو "الإرهاب البدائي".

وأضاف أ. حسام إبراهيم، لتلك النقطة، أن التفكك الرسمي للتنظيم، واعتقال قياداته، أدى إلى ظهور ما يسمى "الأسراب الهائمة" (Swarming Birds)، والتي يقوم عناصر الشُعَب والأسر، وربما "المتعاطفين"، بتشكيل مجموعات صغيرة، محلية، في المحافظات والمدن والأحياء، للقيام بأعمال عنف ضد الأهداف القريبة، كأقسام الشرطة، وسيارات الضباط، وكمائن الطرق، والمنشآت العامة وغيرها، باستخدام المواد المتاحة في الأسواق العادية، لتصنيع أسلحة أو عبوات بدائية، لكن على نطاق واسع.

وقال أ. شادي عبدالوهاب، إن ملامح هذا النوع من الإرهاب تقترب من بعض سمات الإرهاب المحلي (Home grown terrorism)، والذي ينفذ من جماعات شبه مستقلة، ذاتية التجنيد، ذاتية التصرف، ذاتية التدريب، وإن كان الإرهاب البدائي، يتسم بالعناصر التالية:

1. إن عناصره جزء من تنظيم إسلام سياسي، بدت أفكاره وكأنها لا تدعو إلى العنف صراحة، ولكنها في الوقت نفسه لا تمنعه على الإطلاق.

2. إنه في ضوء إخفاقه في الاحتفاظ بشعبيته، اتخذ قراراً باللجوء إلى العنف، لأهداف غير محددة، تتراوح بين الانتقام أو الإسقاط أو التفاوض، أو اليأس.

في النهاية، وضح من المناقشات أن هذه "المشكلة" لاتزال في بداياتها وأنها قد تتخذ مسارات خطرة، أو تتبدد فجأة، وإن كان الاحتمال الأول هو الأقوى.